خواطر حاج

د. عبد السلام مخلوفي

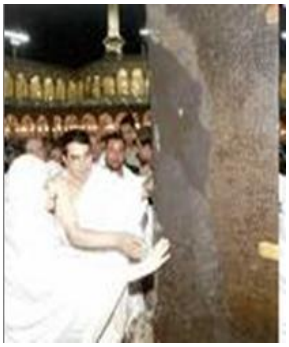

و شددنا الرحال نحو بيت الله الحرام ملبين النداء: " و أذن في الناس بالحج يأتوك رجالا و على كل ضامر يأتين من كل فج عميق "

أذن إبراهيم الخليل فلبينا و جئنا، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد و النعمة لك و الملك لا شريك لك.

" أذن . يأتوك "، علاقة أختصرت في لفظ " لبيك ". يفترض بعد الأذان استماع، و بعد الإستماع استفهام، و بعد الإستفهام جواب بنفي أو قبول للأمر.. كل هذا ذاب في علاقة بين رب يدعو و عبد يلبي و يستجيب.

كم هو عظيم لفظ " لبيك "، إنه ينبيء عن مطلق الخضوع و الإستسلام لرب الملكوت سبحانه. و كأن الملبي يقول: أنا آتيك يا رب على طول، بدون معرفة القصد. يكفيني أن تكرمت علي، و أدخلتني ضمن من ناديتهم، سوف أترك كل شيء، سوف ألقي الدنيا ورائي و آتيك يا رب، لبيك يا رب.عند الميقات يحرم الحاج، و يتجرد من لباس الدنيا دلالة على تجرده من كل الدنيا. فهو في رحلة إيمانية مع الله و إلى الله في أحب بقعة إلى الله، متلهفا لرؤية البيت. و أي بيت؟ إنه بيت من أمره فلبى. بيت الله الكعبة الشريفة.يطوف حولها، قلبه معلق بها. و في الطواف أسرار، إنه رجاء و إلحاح و إصرار المحب على محبوبه، المذنب التائب لخالقه. يتوسل إليه أن يقبله. يطوف الطواف الأول و الثاني ثم الثالث، حتى السابع غير آيس. و هو يحمل أوزاره و ذنوبه يرمق الكعبة بنظره، .. يارب هذا البيت لا تردني خائبا، يا رب هذا البيت جئتك من بلاد بعيدة بذنوب عديدة، سامحني و تجاوز عني و تقبلني. ثم يلتزم الملتزم، بين الحجر الأسود و باب الكعبة، واضعا خده على جدار البيت في مشهد المنكسر الذليل لمولاه، لن يبرح بيته حتى يغفر له. هل لك إبن أخطأ فعاقبته بالحبس مرة، قد تتركه غير مبال و هو يتوسل، لكن إن التصق بباب الغرفة و ناشدك،..سامحني يا أبتي لن أعيدها ثانية..فإن الرحمة تسري في جسدك، و تفتح له الباب و تحضنه و أنتما تبكيان، و الله أرحم و أكرم .يتوجه الحاج إلى السعي بين الصفا و المروة، مستحضرا أمنا هاجر و قد تركها زوجها إبراهيم عليه السلام رفقة إبنها إسماعيل في واد غير ذي زرع. تصعد الصفا لعلها ترمق جالب خير، ثم تسعى نحو المروة في الجهة الأخرى لعلها تجد أحدا. مسافة تقطعها سبع مرات بمسافة قدرها ثلاثة أميال تقريبا.إنها الزوجة الصابرة المحتسبة الراضية بأمر الله، المستسلمة لقدره.كم كان سيدنا إبراهيم مرتاحا في طريقه إلى الله، و قد ترك خلفه زوجة مدركة و مقدرة لرسالة زوجها.

و كان يوم التروية، مبيت بمنى، ثم توجه إلى عرفات. و ما أدراك ما عرفات.. الحج عرفات.
الناس الذين أذن فيهم سيدنا إبراهيم، ذكرهم و أنثاهم، كبيرهم و صغيرهم، شبابهم و شيبهم، راجلهم و راكبهم، صحيحهم و سقيمهم، يتوجهون حشودا حشودا، يسيرون الخطى نحو نقطة محدودة إجتمعت فيها كل العظمة. عظمة الزمان و المكان، و يلح عليك سؤال شفاف و أنت تجد نفسك تسير ضمن حشود الناس، أين أنا ذاهب؟ و أي موعد هذا؟ و من سألاقي هناك؟
هناك في عرفات ينزل رب السموات إلى السماء الدنيا يستقبل عباده فرحا بهم.أتوه من كل مكان، من كل فج عميق، ذليلين منكسرين، تائبين مقرين بذنوبهم يتباكون يرجون الرحمة و الغفران.
و الرب سبحانه الرحيم الرحمن، قال لعباده: تعالوا عندي هنا في هذا المكان، إئتوني بذنوبكم و خطاياكم، أغفرها لكم، فقط أظهروا الرغبة بالسعي و القدوم إلي هنا، أدخلوا في دائرة العفو الشامل أعفو عنكم.
إنسوا ما مضى يا عبادي، لقد غفرت لكم.. أنتم يا عبادي اليوم كيوم ولدتكم أمهاتكم. تخسأ الشياطين و تفر إلى أعالي الجبال. إذا كان هذا أسعد يوم عند المسلم، فهو أشأم يوم عند الشيطان، و هو يرى ذلك المسلم الذي طالما زين له الفسوق و العصيان و وقعه في الخطايا و الذنوب. حياته كلها و هو يجاهد ليخرجه من النور إلى الظلمات، من الطاعة إلى المعصية، من الإيمان إلى الكفر و الجحود، يراه و قد أصبح طاهرا ملاكا من كل ذنب و خطيئة.
يا أكرم الأكرمين، يا رحيم يا رحمن، يا ذو الفضل العظيم أي فضل تفضلت به علينا. أي كرم تكرمت به علينا. أنت الذي وفقتنا للحج لتغفر لنا، أنت الذي أنعمت علينا بالمال و الوقت و الصحة لتحضرنا عندك من أجل أن تغفر لنا. فبشرانا بشرانا و هنيئا لنا. هذا ميلادنا الحقيقي، فلك الحمد كله و لك الشكر كله و لك الفضل كله.
مع الغروب ينفر الناس في سكينة و وقار آيبين و قد اكتمل اللقاء و انتهى الموعد بين رب تكرم فغفر و عبد حمد و شكر إلى المبيت بمزدلفة.
عند مزدلفة تلقي بصرك يمينا و شمالا، فلا يقع بصرك إلا على بياض هادىء ساكن سكون الأموات في لباس الإحرام. و قد نام الجميع في أي مكان و على أي موضع. المحظوظ من وجد شبرا من التراب فنام عليه. مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة. الناس كلهم أموات. أين من كان ينام على الحرير؟ أين من كان ينام في حضن دافىء أو حاضنا لقلب دافىء؟ إنها أحلى نومة، أن تنام طاهرا نقيا من كل ذنب، فمرحبا بالموت إن جاءت فأنت ملاك.
ومع تنفس الفجر تنهض الحشود حامدة الله تتجه إلى الرجم لتجدد العهد مع الله و تعلن العداوة للشيطان برجمه سبعين حجرة، لمن تأخر، و كأن المغزى أن تعلن الحرب مع الشيطان طيلة حياتك التي متوسطها سبعون عاما مصداقا لحديث نبينا" أعمار أمتي بين الستين و السبعين "،
و لن تجد بعد هذا الإعلان إلا شيطانا اكثر إصرار على الوقوع بك، و أكثر عزما على إضلالك.
و يكون العهد و تكون البيعة لله في طواف الإفاضة عندما يأتيك ملك كريم يهزك من طرفك الأيمن قائلا لك: " لقد غفر الله لك ما مضى، فاتق الله فيما هو آت "..